الأنوار
Beyrouth - Lundi 4 Decembre 2006 - 44e Année - No. 16310

الجامعة الأميركية كرّمت المؤرّخ الراحل نقولا زيادة وكلمات تناولت مسيرته كمعلم وعالم وأب وصديق

اقامت الجامعة الاميركية في بيروت مساء امس الأول احتفالاً تكريمياً للراحل البروفسور نقولا زيادة، استاذ الشرف في دائرة التاريخ فيها، في يوم ميلاده، وذلك في قاعة الاجتماعات الكبرى (أسمبلي هول).

الاحتفال اقيم بدعوة من رئيس الجامعة الدكتور جون واتربوري. وقد حضره ممثل رئيس الجمهورية الوزير السابق كرم كرم والنائب غسان تويني وعضوا مجلس الأمناء علي غندور وفاروق جبر، ورئيس الجامعة ونوابه والعمداء والأساتذة والطلاب واصدقاء البروفسور زيادة وعائلته. وقد وزّع في الاحتفال كتاب يحوي كلمات نشرت عن نقولا زيادة عند رحيله.

تكلم اولاً عريف الاحتفال الدكتور ميشال جحا مرحباً بالحضور، وراوياً سيرة حياة نقولا زيادة، من مولده في دمشق الى وفاة والده الموظف في سكة حديد الحجاز في العام ١٩١٥، فذهابه الى دار المعلمين في القدس ثم دراسته الجامعية في لندن ونيله الدكتوراه في التاريخ الاسلامي في العام ١٩٥٠. وقال ان «المعلم» نقولا زيادة درّس في الجامعة الاميركية في بيروت وجامعات غيرها واشرف على عدد كبير من رسائل الدكتوراه وشمل نشاطه التاريخي المشرق والمغرب العربيين. ووصفه بالمؤرّخ المتبصّر المدقق والمحلل المنفتح.

واتربوري

بعد ذلك تكلّم رئيس الجامعة الدكتور جون واتربوري فقال ان زيادة كان مستكشفاً اكاديمياً مثل ابن بطوطة وانساناً رائعاً دافئاً وعيناه تلمعان ببريق الفضول. وقال انه قابل زيادة للمرة الاولى في العام ١٩٦٦ اثناء قيامه بأبحاث في المغرب، وذُهل حين ذكره زيادة بذلك بعد ٣٤ عاماً في حفل في الجامعة لتكريم كوكبة من الأساتذة الباحثين، في حزيران من العام ٢٠٠٠ وكان نقولا زيادة من بينهم. وقال الرئيس ان نقولا زيادة عاصر حربين عالميتين ونصف دزينة حروب اقليمية وحربين اهليتين لبنانيتين ومات إبّان الحرب الأخيرة. وختم: «اجتماعنا هنا اشبه بالمعجزة».

وألقى السفير خالد زيادة كلمة وزير الثقافة طارق متري. وقد جاء فيها ان نقولا زيادة كان مدرسة في التاريخ الثقافي العربي، ولم يكتب لفئة محدودة من المختصين بل لجمهور واسع من المتعلمين وطالبي المعرفة، فقدّم التاريخ بلغة بليغة راقية وعلمية في آن. وقال ان زيادة اسس لأدب تاريخي عربي حديث نهل منه العديد من المؤرخين.

كلمة للدكتور محمد قجّة ألقاها عنه الشاعر هنري زغيب، وفيها تذكر محاضرات البروفسور زيادة والندوات التي حضرها في مدينة حلب، بمشاركة نخبة من الباحثين في لبنان. ومن هذه الندوات ندوة «الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي»، وندوة «ابن حزم الاندلسي»، وندوة «قراءة معاصرة في تاريخ الدولة العثمانية». وقال ان ذهنه كان مثل جهاز كمبيوتر.

ثم كانت كلمة للدكتور سمير صيقلي من دائرة التاريخ في الجامعة، وفيها تناول سيرة البروفسور زيادة الذي «ألف ٤٥ كتاباً بالعربية، وترجم ١٤ كتاباً من الانكليزية الى العربية ونشر ستة كتب بالانكليزية، وذلك بالإضافة الى مئات المقالات الأكاديمية. وقال ان زيادة قد يكون اول مؤرخ عربي في الأزمنة الحديثة يشدد على دور الجغرافيا في مجريات التاريخ ويحلل هذا الدور.

من جهته، قال الدكتور وجيه كوثراني ان نقولا زيادة «استدخل اخلاقيات الإخلاص والصدق في البحث والكتابة والعيش اليومي فتجلّى علمه تواضعاً وغزارة كالنهر المنساب الهادئ».

ثم كانت كلمة للدكتور عدنان بخيت، من الجامعة الأردنية، فقال ان نقولا زيادة كان يتذكر كل تلاميذه في الأردن، وان مكتبه وبيته كانا ملتقى الطلاب من كل الجامعات. واستعاد اول لقاء لهما في مكتب البروفسور زيادة في الطابق الرابع من كولدج هول، وقد كان المكتب مكتظاً بالكتب بحيث لا يجد المرء مكاناً للجلوس بسهولة. وقال انه كان يتذكر البروفسور زيادة في كل مرة كان يسمع فيها المقالة الإذاعية للصحفي البريطاني الشهير ألستركوك «رسالة من اميركا» وذلك لبراعة زيادة في هذا الفن، وقال ان زيادة أرّخ العادات والتقاليد اليومية في حياة العرب وكتب بأسلوب «سهل ممتنع ومفيد». كما تميّز بروحه المرحة.

انيس الصايغ

ثم القى الدكتور ميشال جحا كلمة الدكتور انيس الصايغ والتي قال فيها: ان دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت عاشت عهدها الذهبي في الربع الثالث من القرن الماضي بوجود اساتذة فيها من مثل نقولا زيادة وقسطنطين زريق ونبيه امين فارس وزين نور الدين زين. وقال ان زيادة بحث في التفاصيل وفي الوحدات الأصغر ضمن التجمعات الأكبر. وتكلم عن تجربته الشخصية مع نقولا زيادة الذي كان كبير مستشاري مشروع الموسوعة الفلسطينية الذي كان بعهدة الدكتور الصايغ. وقال انه كان واحداً من ثلاثة من ابرز مؤرخي فلسطين في القرن الماضي، الى جانب عارف العارف ومصطفى مراد الدبّاغ.

بعد ذلك تكلم الشاعر هنري زغيب فوصف نهم نقولا زيادة الى الحياة وايمانه بها، وخفّة روحه. وقال انه مشى عكس السير في تحديه للحياة ولم يشعر انه هرم او تقدّم بالسن، وجمع بين الأكاديمي الأريب والدمث القريب.

مسيرة حياة

ولد نقولا زيادة في دمشق في ٢ كانون الأول ١٩٠٧ ونال شهادة البكالوريوس في التاريخ القديم من جامعة لندن في العام ١٩٣٩ كما حاز على شهادة في التاريخ الاسلامي من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية، في لندن ايضا، في العام ١٩٤٧. وقد تنقل في عدة مناصب كمحاضر ومطالع في التاريخ القديم، في القدس وفي بريطانيا قبل ان يعيّن استاذاً مساعداً في الجامعة الاميركية في بيروت في العام ١٩٤٩، ثم استاذاً (بروفسور) في العام ١٩٥٨.

سريعاً حاز نقولا زيادة على إعجاب طلابه وشغفهم. وقد نجح في جعل التاريخ مادة حيّة محببة الى قلوبهم، وراح طلابه (او اصدقاؤه كما دعاهم) يشعرون وكأن حصصه في التاريخ أحداث راهنة تجري امام أعينهم. وهو علم التاريخ حتى تقاعده في العام ١٩٧٣ وقد منح حينها لقب استاذ شرف. وخلال تلك الفترة كان ايضاً استاذاً زائراً في جامعات في الولايات المتحدة والهند. وبعد التقاعد، علم في جامعات في نيجيريا وفي جامعة القديس يوسف والجامعة اللبنانية. وقد وضع اكثر من اربعين كتاباً في التاريخ العربي والاسلامي. وقد توفي في ٢٧ تموز من هذا العام.